

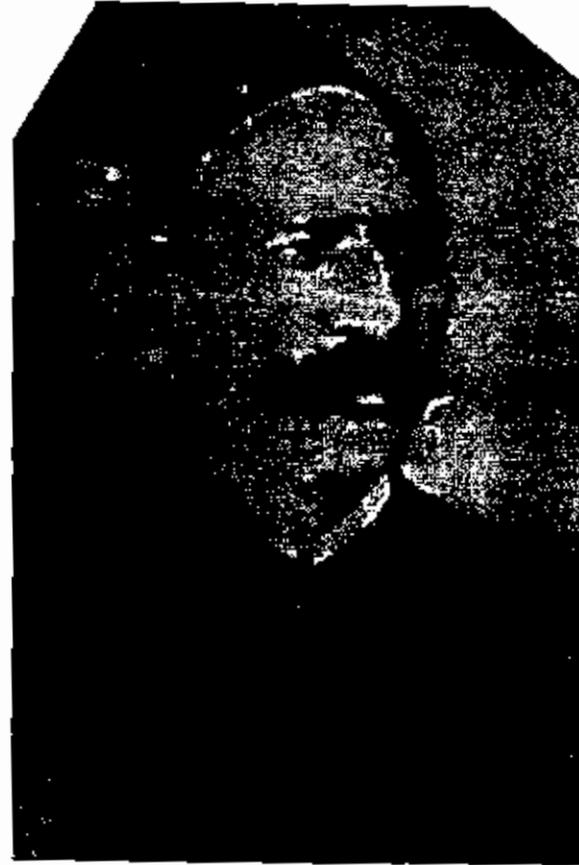
التاريخ في سيرة أبطال

أحمد عرابي

أما كان لتاريخ أن يصف هذا المصري العجيب
وأن يحدد له مكانه بين تواد حركتنا القومية ؟

للأستاذ محمود الحفصيف

—•••—



ولندع الآن عرابياً في رأس الوادي ولننظر ماذا كان من
أسر شريف ووزارة شريف . وهنا أبادر إلى القول إن هذه المرحلة
من تاريخ مصر كانت أهم المراحل الماضية جميعاً منذ الحملة الفرنسية
وأدقها وأبعدها أثراً فيما هي مفصلة عليه بعدها من مراحل

ظن الناس أن قد انجبت الناشئة على بحر ما صور المستر بلنت
ولسكنهم لم يكونوا يعلمون أو لم يكن يعلم إلا الأقلون منهم أن
وراء هذا الصفر كدراً ، وأن سماء السياسة كانت يومئذ كماء
الطبيعة صفت هنيئة لتبدل بعدها بالسحب المركومة ، وتلتاق
في جوانبها غمرايب سود من الغرابان الناعبة فتكون حنكها

وطيوقها بعد هذا الصفر أبيض ما تكون منظرأ وأشد ما تكون
إبلاماً ينفوس ويرعجاً ينفواطر

وكيف كان يرعى دوام انصافه وقد كانت الشباك منصوبة
وقد أخذ انصافون يدفعون العريضة إليها دفماً بعد أن أعيام
الأمر فلم يستطيعوا أن يأخذوها بالحيلة أو أن يمسحوا عينها كما
كانوا من قبل يفعلون ؟

كيف كان يرعى انصافه وقد كان الخديو يضرع عكس ما يظهر
كأن لم يكفه ما أصاب البلاد من جراء سياسته وتنكره للحركة
الوطنية وإيجاده بما فعل الشقرة التي كان ينفذ منها الدخلاء
والتربصون بمصر إلى صميم حركتها وقلب نهضتها ؟

وما أشبه توفيقاً في ذلك الموقف ، بل وفي معظم مواقفه كما
أسلفنا بلويس السادس عشر ، ذلك الملك الطيب القلب الذي كان
يدفع الثورة في بلاده بمسلكه دفماً ، والذي يرمى إلى سياسته
الملتوية اللذبية أن تنكبت تلك الثورة نهابها السلى العاقل
واندفعت في طريق جرت فيها الدماء وتطارت على جانبيها الأشلاء

ظهر ذلك الملك للنواب أول الأمر في جلد الأسد ، ثم
استخدى بعد وثية ميرابو ، ولكن الثائعات طافت بأهل باريس
أن الملك أخذ يستمد وجمع حوله الجند ، فالبث أن جرت
الدماء في باريس ودك الناس الباستيل رمز السويدية والجبروت ؛
ثم رأى أهل باريس بين الدهشة من الملك والذرية عليه والتهيرى
به أنه يركب في جماعة من النواب كان في مقدمتهم ميرابو فيزور
باريس ويطوف بأبحاثها وعمر بمخزائب الباستيل مظهراً عطفه على
الثورة والشوار ، ولكنه يبرود بعد ذلك فيأتي من معاني التحدى

والنزق ما يجعل الشعب يذهب فيقتحم عليه غرف قصره في فرساي
ويعود به إلى باريس ليكون رهينة فيها ، ويتم الدستور فيرفع إليه
فيوافق عليه ولكن ريثما بعد العدة للرب ، ثم يضبط الحكين
وقد أوشك أن يجتاز الحدود فيقضى هذا العمل عليه وتمضى الثورة
في طريقها بحسنة لا تلوى على شيء حتى تأكل آخر الأمر نفسها

ولقد كان توفيق بسلك تجاه الثورة المرابية مسلك لويس
تجاه الثورة الفرنسية مع فارق واحد وهو أن الخديو ، كان من
ورائه الإنجليز فلما لجأ إليهم توفيق كما هرب لويس لم يقض هذا
العمل عليه وإنما قضى على البلاد
تخلص توفيق من رياض وقد كان يسى إلى التخلص منه ،

ما استلقت زمام الحكومة عزمت بنية خالصة على فتح علس النواب ولكن تأخر لأن بسبب المشكلات التي كانت عيصة بالحكومة ، فأما الآن فنحصد الله تعالى على ما يسر لنا من دفع المشكلات المالية بمساعدة الدول المتحابة ومن تخفيف أحوال الأهالي على قدر الإمكان، فلم يبق مانع من المبادرة إلى ما أمانتسوق لمصومه وهو مجلس النواب الذي أنا قائمه في هذا اليوم باجتماعكم »

هذا هو كلام الخديو فهل كانت هذه نيته ؟ تلك هي السأله وزى أن خير ما يجب به هو أن نعرض الحوادث التي تلت ذلك ومنها يتبين إلى أي حد كان الخديو بنوى ما يقول

دأب الذين كانوا يعملون من وراء ستار على تخويف الخديو من ناحيتين : ناحية الحركة الوطنية وناحية تركيا موخين إليه في الأولى أن حكم الدستور معناه ضياع سلطة الخديو، وفي الثانية أن تركيا لا ترحب إلى توفيق وأنها تبيت له ما لا يحب . وغرض هؤلاء الذين كانوا يعملون في الظلام وأضح وهو أن يركن الخديو إليهم ليخلص من هذا كله

أما عن حكم الدستور فكان ذلك يقتضى حقاً أن يتنازل الخديو عن جانب كبير من السلطان المطلق إلى نواب البلاد وتلك هي المشكلة ، وما كانت مشكلة في مصر وحدها ، بل لقد كان لها مشكلات في جميع الحركات الدستورية التي شهدتها العالم ، فاقام الخلاف بين الملكية والشعب في فرنسا إبان ثورتها إلا من هذه الناحية . وما استعرت القلاقل قروناً بين الملكية والشعب في إنجلترا إلا بسبب ذلك . وما استقرت الأمور في الدولتين إلا حينما أثبت الشبان قوتهما . وإذا فكان لأبد أن يتقافم الخلاف بين الشعب والخديو في مصر حتى يثبت الشعب قوته أو يتنازل الخديو عن مبدأ الحكم المطلق ، ومن هذا الخلاف كانت تتاح الفرص للأجانب ليسيظروا على الخديو وأما عن تركيا فقد كان توفيق يترقب ويخاف من سياستها .

فكر السلطان أولاً أن يرسل جيش احتلال إلى مصر ليميد فيها نفوذ الخلافة سيرته الأولى قبل عهد محمد علي ؟ ولكن إنجلترا وفرنسا ما زالتا به حتى استطاعتا بالسياسة حيناً وبالهديد من بعد حيناً آخر حتى أفلح عن هذه الفكرة . ولقد أفادت من ذلك قائدين : بقاء مركز مصر على ما هو عليه بحيث يسمح لها بالتدخل في شؤونها ؛ والتأثير على الخديو بهذا أنهما هما الملاذ والسند

ولقد كان الأمير عبد الحليم بن محمد علي في الأمانة يدس السائس ويسعى سعيًا متواصلًا لخلق توفيق وتولى حكم مصر بدلاً منه ، وكانت صيرة ذلك النشاط ترجع توفيقاً وتعلق مضجعه

فكيف أراد أن يسلك شريف مسلك رياض ولقد كان الفرق بين الرجلين هو الفرق بين الاستبداد والديمقراطية ؟

لقد عادت الظروف من جديد تبين للخديو بأجلى وضوح أن الطريق الوحيدة هي الانضمام إلى الحركة الوطنية ومشايستها في صدق وإخلاص ، ففي ذلك منجاة من تطرف هذه الحركة وجوحها ، وفي ذلك منجاة البلاد من تدخل الأجانب باسم المحافظة على عرش الخديو، ثم من احتلال البلاد باسم القضاء على الفتن والقلاقل ولكن الخديو تنكب هذه الطريق فدفع تيار الثورة بمسلكه هذا كما كان لويس يدفع تيار الثورة في بلاده . ولقد رأينا كيف آنس الثوار في أنفسهم القوة منذ انضم الساكر إلى الحركة ، وكيف فهم الزعماء أنهم حصلوا على ما حصلوا عليه عن طريق الادهاب والقوة، بعد أن مجزوا عن ذلك عن طريق المسالمة والرجاء ومن عجيب الأمور أنه لما انتهت الثورة إلى ما انتهت إليه حمل زعمائها كل أوزارها وخرج عرابي السكين بالنصيب الأوفى من هذه الأوزار ؟ مع أن الحوادث تثبت عكس ذلك ، وهي لو درست على حقيقتها وردت فيها الأمور إلى أصولها لرد ما يرمى إلى عرابي أو أكثره إلى الخديو دون أن يكون في ذلك أقل تبجح على هذا ولا أدنى تمييز لذلك

سار شريف على نهج حكيم فأرضى الأجانب بقبوله المراتية الشائبة، وأرضى الوطنيين بتحقيق الآمال الوطنية، ولكنه ما لبث أن أحس أن هؤلاء الأجانب لا يدعون وسيلة لضم الخديو إليهم حتى لقد ترك شريف بمدمة وجيزة يمل وحده ، وكأنما وضع الخديو نفسه في عزلة

ولو أنها كانت عزلة عن الوطنيين دون اتصال بالأجانب وعلى الأخص بالإنجليز لكان أمرها ؛ ولكن توفيقاً قد سبب بعزله أول الأمر رية ومخاوف في قلوب المسكرين ؛ ثم تطورت الحال إلى كراهة وأدت الكراهة إلى المقاومة من جديد . ولقد كان أمام توفيق في الواقع هيتان : الوطنيين برئاسة شريف ، والمسكرويون بزعامه عرابي . وكان يستطيع بشيء من الكياسة والمهارة أن يرضى الوطنيين حتى لا يدع مجالاً لتدخل المسكرين من جديد، ولقد رأى بنفسه ما كان من أمر هذا التدخل بالأمس القريب

افتتح مجلس شورى النواب في يوم ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ وجاء في خطاب توفيق في حفلة الافتتاح ما يأتي : « أبدى لخصرات النواب مسرورين من اجتماعهم لأجل أن ينوبوا عن الأهالي في الأمور السائدة عليهم بالنفع ، وفي علم الجميع أن من وقت

وأخيراً أوفد السلطان وفداً إلى مصر برئاسة علي نظامي باشا ، وقد فعل السلطان ذلك دون علم الدول الأوروبية ، ولم نعلم بذلك حتى الحكومة المصرية نفسها إلا عند ما وصل الوفد . وكان عرابي قد كتب إلى السلطان قبل يوم عايدين كما أشرنا . ولعل السلطان أوجس خيفة من الحركة القائمة في مصر ، وظن أنها تنطوي على عناصر استقلالية ترى إلى خلع سيادة الأتراك . وقد كان عبد الحميد يومئذ يقاوم الحركات الحرة في بلاده ويطلب بالداعين إليها . ولكن الوفد كتب تقريراً عن الحال في مصر جاء فيه على لسان الخديو أن البلاد هادئة ليس فيها ما يخيف . وجاء على لسان رئيس الوفد أن رجال العسكرية والأعيان جميعاً يؤكدون ولا هم للسلطان ، وإنه لذلك يثنى عليهم ولا يخالجه شك في حركتهم . ولقد قامت الدولتان بمظاهرة بحرية في مياه الإسكندرية ؛ فلما سألتها الحكومة المصرية عن سبب ذلك أجابت أن سفنها تشارك الإسكندرية في اليوم الذي يسافر فيه الوفد العثماني عائداً إلى الأستانة ؛ وقد تم ذلك فعلاً حينما غادر الوفد البلاد ، ومعنى ذلك أن الحكومتين لم تسمحا للسلطان صاحب الحق الشرعي في البلاد حتى بمجرد النظر في أحوالها ، ومعنى ذلك أيضاً أن يزداد تأثيرها في قلب الخديو فيلجأ إليهما إذا لزم الحال حتى ضد السلطان نفسه !

ورب قاتل يقول إن في ملك تركيا ودساتير عبد الحليم ما يدع للخديو العذر في الاعتماد على الدولتين ، ولكن هذا زعم باطل ؛ فرجال مصر جميعاً لم يكونوا في تلك الأيام يفكرون مطلقاً في الخروج عن سيادة تركيا ، كما أنهم كانوا لا يسمحون للسلطان أن يزيد حقوقه في مصر عن القدر المقرر في القرائن . ولنفرض جدلاً أن للخديو الحق في أن يخاف جانب السلطان أفلاً يكون بالتجاهل إلى الدولتين كالاستجير من الرضا بالنار ، كما يقول المثل العربي ؟ وهل كانت الدولتان تحميانه إلا لنرض ؟ وهل كان هذا النرض إلا رغبة كل منهما أن تحمل في مصر حمل السلطان ؟

إن الحوادث كلها كانت تشير للخديو إلى الطريق الوحيدة التي كان عليه أن يسلكها ، ولكنه كما ذكرنا اختار الإحياز إلى جانب إنجلترا منذ حادث عايدين مع تظاهره دائماً أنه يعطف على أماني البلاد ، وفي ذلك الخطر كل الخطر وفيه من أجل ذلك مسؤولية الخديو عن اتجاه الحوادث بعد ذلك إلى تلك السبل التي أقضت بالبلاد إلى كارثة الاحتلال

ونعود إلى عرابي فنقول : إن الحكومة قد استدعته من مقره في رأس الوادي وأسندت إليه منصب وكيل وزارة الحربية ؛

وهو يمزج هذا العمل إلى ما بلغ الحكومة على لسان جوابها أنه يجوز في بلاد مدبرة الشرقية فيتصل بالوجود ومناخ العرب بحزناً داعياً إلى نشر مبادئه وأغراضه . ويذكر عرابي أنه أصر عليه وقتئذ برتبة اللواء (باشا) ولكنه رفضها مخافة أن يتهم أنه يعمل لشخصه . ولئن صح هذا وهو ما لا نستبعده ، لكان لنا في منزله حسنة نضيفها إلى حسنات هذا الرجل ؛ حسنة تعتبرها من كبرى الحسنات فإن التفات على الرتب والألقاب لم يزل حتى اليوم في بلادنا المسكينه داء عياض يتنقل في نفوس ساداتنا وكبرائنا ! وتقول لمن صح ذلك لأن الخبر من جانب عرابي فهو في مرتبة الدعوى ! وتقول إنما لا نستبعده مستندين في ذلك إلى شاهد قوي ، فهذا الرجل كان بطل الانقلاب يومئذ وعلى يده وصلت مصر إلى ما وصلت إليه ؛ فلم يقد من وراء ذلك أية فائدة شخصية . ولو كانت في نفسه يومئذ أطلاع من هذا القبيل لرأيناه يصل على الأقل إلى مرتبة الوزير ، وتقول على الأقل لأنه كان في موقف تحكم فيه في الخديو وفرض عليه الشخص الذي يؤلف الوزارة ، وهو موقف يوحى إلى الأتقى التورور ، فلو خالط نفس عرابي يومئذ طمع في جاه أو منصب لما وقف دونه إلى ما بيتنى حائل . ولقد اتصل عرابي في منصبه الجديد المستر بلنت وطلب صداقته فأجابه عرابي في سرور إلى ما طلب وتصالفاً . ولسوف تتمكن بينهما الصداقة وتتوثق عمرى المودة سنين طويلة بعد ذلك وجرى بين عرابي وبلنت في هذا اللقاء حديث أثبتته كل منهما في مذكراته وفيه أشار عرابي إلى ارتياحه إلى تخلص مصر من سادى حكم اسماعيل ومن دساتير الجراكسة ، ولكنه أبدى مخاوفه من سياسة إنجلترا وفرنسا نحو مصر ، وعبر عن أمله في أن تعطف إنجلترا على حركة الحرة في مصر وهي الدولة التي تقدر الحرية ، وكان عرابي يتوقع المطف من إنجلترا أكثر مما يتوقعه من فرنسا ولا سيما من جانب المستر غلادستون الذي اشتهر بمطفه على الحرية في كل مكان

وليت شعري ماذا يطلب الذين يرمون عرابياً بالطمع والجمل والترف ، أكثر من هذه البراهين التي نسوقها على أنه كان بريئاً من هذا كله ؟ ألم يأن لمؤلا أن يقرأوا سيرة هذا الرجل في غير محامل عليه حتى يعرفوا لهذا المصري المجاهد قدره وأثره في نهضتهم القومية ؟ وهل يوجد في المايب القومية عيب هو أشد قبحاً من جهل قوم برجلهم في الوقت الذي يرون غيرهم بمجدون ذكرى رجالهم فيوحون